

المعنى الإيجابي للحرية الإنسانية



الحرية هي قدرة المرء على الاختيار، ولا شك أن الحرية أصل محمود يتوق إليه الإنسان بطبعه، وأن العبودية وصف مذموم ينفر منه المرء بفطرته، فالأولى أقرب إلى العدل والإنصاف، والثانية أقرب إلى الظلم والإجحاف، والناس قد ولدتهم أمماتهم أحراراً، كما قال الإمام الحسين (عليه السلام): «كونوا أحراراً في دنياكم». كانت العبودية قديمة قدم الظلم ولم يأت بها الإسلام، بل وجدها أمامه من رواسب الجاهلية فأراد أن يقضي عليها بالتدرج، ووضع لها حلولاً منهجية معروفة. وأكثر من هذا وذلك فقد جعل الله تعالى تحرير الأرقاء عبادة، حيث قال تعالى: (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتَتَبِعُ مَنًّا مَقْرَبَةً * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) (البلد / 16-11).

دعا الإسلام إلى العدل والمساواة بين الناس جميعاً، فلا تفاضل بين الناس إلا على أساس تقوى الله تعالى، ولا يكون التفاضل أبداً على أساس العرق أو اللون أو الجنس، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «يا أيها الناس! ألا إن ربكم عز وجل واحد، ألا وأن أباكم واحد، ألا فضل لعربي على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلا بالتقوى، ألا قد بلغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهد الغائب». وقد كفل الإسلام الحرية للإنسان وحماه من الظلم والاضطهاد، كما نصت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. قال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ * عَلَيَّ كَثِيرًا مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء / 70). ومما لا شك فيه أن الحرية جزء لا يتجزأ من ذلك التكريم وقال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين / 4). وإذا كان الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم فليس من المعقول أن يفرض عليه المذلة والاسترقاق. وهذا ما بينه القرآن في آية أخرى حينما ضرب لنا مثلاً في قيمة الحرية فقال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ ذَا رِزْقِنَا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهراً هَلْ يَسْتَوُونَ) (النحل / 75).

فالإنسان وفق الرؤية القرآنية، ومنطق العقل الإسلامي، يجب أن يكون مختاراً وحرّاً، ليكون مسؤولاً،

وليجري عالم الإنسان وفق عدل الله تعالى، فلا مسؤولية بلا حرية، قال تعالى: (وَهَدَىٰ نَهْجَهُ النُّجُودَ يُنْزِلُ) (البلد/ 10). (إِنَّ نَاسًا هَدَىٰ نَهْجَهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان/ 3). وهكذا تتلازم الحرية والمسؤولية في العقيدة الإسلامية، وفي الفكر الإسلام، وهكذا تكون قيمة الإنسانية في كونه حرًا مسؤولاً. نعم، لقد خلق الله الإنسان حرًا، وخلق بني آدم أحرارًا، ليسوا بعبيد للعبيد، وهذا هو الأصل فيهم، والله عز وجل أعطى الإنسان إرادة، ومشئنة، واختيارًا، فليس العبد مجبورًا على عمل، وإنما هو حر في اختياره ومشئته، قال الإمام علي (عليه السلام): «لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حرًا».

وقد فرض الله عز وجل الجهاد دفاعًا عن الحرية ونصرة للمظلومين والمستضعفين في الأرض، فقال تعالى: أُوذِيَ الَّذِينَ لَدَيْنَا يَفْقَهُ تَلْوِينَهُمْ فَأَلْزَمَهُمُ اللَّهُمُّ طُلُوعًا وَإِنْفَاقًا عَمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ (الأنعام/ 110). لَقَدْ دَرَسُوا * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَبْتَغُونَ حَقَّ إِسْلَامٍ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا إِنَّا أَفْوَاجٌ لَا دِفْعَةَ لَنَا مِنَ اللَّهِ وَإِنَّا بِأَعْيُنِنَا صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَظَوَّارٌ (الحج/ 40-39).

يستوحى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) من الآية الكريمة: (وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْجَبَلِ وَالْشَّجَرِ وَهُوَ عَزِيزٌ ذَا جِلْدٍ مُدْمِنٌ) (المنافقون/ 8)، فيقول (عليه السلام): «إن الله عز وجل فوض إلى المؤمن أُمُورَهُ كُلَّهَا، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، أما تسمع قول الله عز وجل يقول: (وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْجَبَلِ وَالْشَّجَرِ وَهُوَ عَزِيزٌ ذَا جِلْدٍ مُدْمِنٌ)»، فأنت لست حرًا في أن تذلل نفسك وأنت مؤمن، فقصّة عزّتك تنعكس على قصّة إيمانك، وبذلك يكون الذلّ حركةً سلبيةً في معنى الإيمان.